هذا هو أنت

محمود الريماوي

(١)

في جنبات حيَ يحاذي جبل زيتون، تم سلبه هناك ما لا يُضاهى بثمن، ولأسباب تخصَه فإنه يتحدث لمن يهمه الأمر، عن "ألف دينار ذهبي"، هي كل ما يملك وآخرما يملك، سُلبت منه بسطوٍ مبتكر متكرر الحلقات، وما صار قد صار.

هو نفسه لا يصدق ما حدث، لولا أن ما حدث قد وقع له وأصابه، ولولا أن الفقر أدركه: فتك به وعضَه بنابه، وقذف به إلى الهامش والقعر، وجعله عُرضة للشفقة ثم للاتهام فالمطاردة، ولولا أن غموضاً متعمداً أسبغه سالبوه على عملية سلبه.

كان هؤلاء يستفردون به في أوقات متعاقبة من النهار أو الليل، على رصيف المشاة، أو في عقر (قلب) بيته المحاذي للشارع بين امرأته وصغاره، أو في صفوف مدرسته على مرأى من تلامذته وإن ليس أمامهم، أو تحت شجرة تين عملاقة غير بعيدة عن بيته، اعتاد الاضطجاع صيفاً وخريفاً وربيعاً في افيائها، ويطوَقونه كل مرة بأعدادٍ أكبر من المرة السابقة، متخذين هيئة محققين سريين

محمود الريماوي، قاص من الأردن/ عمّان

يداهمون مشبوهاً، وجباة ضرائب يطاردون هارباً. يغيرون عليه من خلفه مهدَدينه بأسلحة حديثة، أو يفاجئونه من أمامه مصوبين أسلحتهم نحو صدره، ويطلقون نيرانهم الحية ورصاصاتهم المدويَة، فوق رأسه وبين قدميه (أصابت إحداها ربلة ساقه اليسرى وتسببت بعرجه)، ثم يسلبونه ما يحوزه، فيما أفراد شرطة انتدبوا أنفسهم للسهر على الأمن والسكينة، يختفون في الأثناء: يهمهمون ويرطنون وينسحبون انسحاباً منظماً، أو يكتفون بإدارة ظهورهم لما يحدث، " لأن ما يجري خارج اختصاصهم " .

وبينما يغالب الوقوع فريسة المفاجأة، وينتضي سلاحاً أبيض في جوههم، ويفلح في إيذاء هذا أو ذاك من مهاجميه، وهو ما تكرر غير مرة، فإن هؤلاء ينجحون في الإطباق عليه، وانتزاع ما يتيسر لهم منه. وحتى لا يتكبد عناء احصاء المسروقات، فقد كان سالبوه وهؤلاء أشباح مرئيون يتولَون هم تذكيره، كل مرة وبلطفٍ مسرحي شديد بما يتبقى في جعبته، وهو ليس بالقليل في رأيهم، وتهنئته على ما يحوزه. كانت تلك طريقتهم، في التأثير على معنويات الضحية، وبلبلة مداركه وتفخيخ رد فعله، وهي طريقة تميزهم عن أرباب المهنة الآخرين، إلى أن أجهزوا مع التكرار والابتكار، على آخر مايملك وكل مايملك.

هم أشباح مرئيون يظهرون فقط لبعضهم بعضاً، بينما يبدون لغيرهم كشخص واحد يتكرر، وما أن يظهر واحدهم بملابس فولكلورية ذات هيئة حربية: سترة خاكية وقميص وسروال طويل قاتمة الألوان، فضفاضة متهدلة تخفي القوام وما بين الملابس من عتاد وأسلحة، وبقبعة انجليزية من الفلِّين، وبسحنة الحزين الضائع اللب. . ما أن يظهر أحدهم لبرهة، حتى يختفي طويلاً.

وقد شهد شهود في منابر ومحافل بلا حصر، وفي ما بقي من وثائق إرشيفية في "المدينة العالمية" ، شهدوا على وقوع عملية السطو المتكررة المنظمة التي طار صيتها، دون أن يضعوا حداً لها. بعدئذ، بعد هذا التشجيع، قال سالبوه وقد تسللوا ـــ بعد النجاح الذي حققوه ـــ الى المنابر، ودون أن يَعدِموا أن يفتقدوا، من يرغب في تصديقهم. . قال هؤلاء بأسىً مُنغَم وبلسانٍ واحد وبنبرة جياشة، كما لو أنهم كورس يتلو نشيداً أو يؤدي طقساً، في مسرحية من مسرحيات النفوس المعتمة: إنهم يصححون الوضع ليس إلا، فماله ليس له كما يتوهَم بل لهم، وما جرى هو لمصلحته في نهاية المطاف، كما أن أموالهم ملكهم.

في طفولته لطالما تحدث إليه أبوه الراحل، سليل الكدح والذي أمضى عمره يختلط بأشجار

حقله فلا تتميز هيأته عنها، وكذلك أمه التي ما زالت على قيد الحياة وقد تجاوزت الثمانين، عن تقاطرهؤلاء الأشباح من وراء البحار (الارشيف أثبت ذلك في ما بعد) وعن الذعر الذي يخيم على قسماتهم كغمامة رصاصية، ويحجب عنهم الرؤية، وعن انتشار هؤلاء من حولهم. لا بد أن ذكريات أليمة تطاردهم، غير أنهم ولدهشة الأب بدوا عازفين عن قبول أي تعاطف معهم، أو أي اهتمام بهم، فقد انصرفوا لتصريف ما يختزنونه من هلع، بإثارته في وجوه من يصادفونهم بمن في ذلك النساء والأطفال، الذين ينتشرون في الحقول والوديان والجبال ومرافق المدن وعلى ساحل بحرهم، وذلك بدل استدراج العطف والألفة نحوهم. ولم يعمدوا كدأب الغرباء في مثل هذه الحالات، لمصادقة أحد من الناس، بعدما حلَوا بغتة ولكن بالتتابع بين ظهرانيهم، فقد اتخذوا من بعضهم بعضاً دون غيرهم، شركاء ومؤنسين.

ولطالما فكَر الأب المزارع أنهم من فئة الشحاذين الخطرين، العابرين الحدود المجهولي الهوية، اولئك الذين يدهمون البيوت والمحال المفتوحة، ويقرعون بعنف وصلف الأبواب المغلقة، أويصطدمون بأكتاف المارة وبدل ابداء الاعتذار، يحدجون ضحاياهم بنظرات شزراء، فإذا تردد أحد في منحهم شيئاً ما، فإنهم يسلبونه بلمح البصر ما تقع عليه أعينهم. أما هؤلاء الأشباح المرئيون، فكانوا يخيَرون من يصادفونه بمنحهم ما يريدون، أو يسلبونه كل ما يملك، أو يتوعدونه بالموت حتى لو لم يجهروا بذلك صراحةً، غير أن أنباء كل يوم في تلك الأيام، كانت تتحدث عن صنيعهم. وقد انشغل ناس كثيرون وأنا منهم، قال الأب نادماً ومخطَئاً نفسه ب "عصابة الكف الأسود" التي تخطف الأطفال، دون أن نسمع عن طفل اختطف، لكن العصابة المزعومة خطفت بحق عقول الكبار، فلم يكن الأمر سوى حديث خرافة، انشغلنا بها عما يرتكبونه هم أي الأشباح المرئيين، وما تكشفت عنه أيام الناس. وليتهم كانوا مثل الشحاذين الخطرين، الذين عرفهم الأب ممن ينتزعون صدقات إجبارية من الأرامل ، ويسلبون الأولاد والبنات حصيلة عيدياتهم، أو حتى مثل العصابات الخرافية ذات الكف الأسود أو الأزرق. .

أما واقعة السلب، سلبه، واقعة "الألف دينار ذهبي" ، فقد اكتفى جمع من شهود مفوَهين ينتشرون في الأصقاع بوصفها بألسنٍ عديدة : إنها تثير الحيرة. ولم يكن الصواب يجانب هؤلاء، فقد تم استهدافه دون سواه، عن عمد وتصميم، دون سابق خصومة معهم، وبغير أن يتمتع بصيت الأغنياء، أو أن يكون بالفعل على غنىً، وهو ما يثير الحيرة حقاً حتى لدى غير المتفلسفين.

"لكن أين الشهود يشهدون، على آلاف سابقة من دنانير ذهبية، سلبت من آبائي من قبل" يسأل "الأستاذ" ضيوفه المتدافعين أمام بيته، لمعاينة آثار الواقعة والتطفل في الاثناء على خصوصية بيته. يسأل مسترسلاً متلعثماً وكاظماً غيظه معاً، عارفاً أنه يفتح بذلك أبواباً عدة (أعشاش دبابير) دفعة واحدة، لا يسهل اجتيازها ولا إغلاقها ولا حتى تحمَل هبوب ريحها، فيما ينوء وحده بعبء مشاعر لا يسعه كتمها، ثم مستدركاً ومطمئناً سامعيه أنه يكافح لاسترجاع المسروقات الجديدة الأخيرة، الأخيرة فقط مما ادخره وورثه، متسائلاً: أين الخطأ في ذلك، أين الخطأ. هل أطلب القمر. ينكر ضيوفه عليه أنه يطلب مثل هذا الطلب الخيالي، أما سالبوه الذين كان يتناهى إليهم في الاثناء حديثه أولاً بأول، فتمنوا لو أنه طلب القمر، أو صعد إليه ولم يعد.

وقد نجح في النهاية بالعناد والمثابرة في نيل وصف: أستاذ، من حشد من فضوليين مجتهدين: أستاذ في الخسارة، إذ لم يعد لديه ما يخسره. وقيل إن احد أبنائه الفصيحين، هو الذي أطلق الوصف أمام الضيوف، قاصداً امتداح أبيه وانسلَّ خارجاً، وقد اعتبرها الأب للوهلة الاولى مزحة، لا تستحق الاحتجاج عليها أو قبولها، لكن العبارة صادفت من يلتقطها ويشيعها، حتى ذهبت مذهب القول السائر، وبات السياح وطلبة المدارس والعاطلين عن العمل وباعة الصحف ورواد المقاهي وربات البيوت يرددونها، كما يرددون أغنية الموسم، وبات هو يضيق بها وقد التصقت بجلده كالوشم. فلو كان لديه ما يخسره باستثناء راتبه التقاعدي الهزيل، الذي بالكاد يقيم الأود، لكان وضعه أقل سوءاً، ولما تعرَّض ويا للغرابة للحسد لكونه ليس لديه ما يخسره. بينما وصفه آخرون من شهود مفوهين سبق ذكرهم بأنه: أستاذ في الصبر والخطابة، لجَلَده الذي يضاهي صبر وتحمَل الجِمال العربية وغير العربية، ولمواظبته على البوح والتعبير عما أصابه. على أن الثناء لم ينفعه بشيء، فلم يكافأ لم ينل إنصافاً على صبره وتحمله، إذ ظل مدعواً لإبداء المزيد منه في عرضٍ متواصل إلى ما لا نهاية. ولم يسعفه اعتبارعارفين له دأبوا على زيارته، أو متابعة أحواله عن بُعد أنه: أستاذ في فن البقاء. فهل كان يتعين عليَ أن أستسلم للانقراض، أن أنقرض أنا وأسرتي الوفيرة العدد، كيما أكون شخصاً عادياً بغير أستذة على أحد. لكن عارفيه هؤلاء ظلوا يتساءلون تساؤلاً غير إنكاري: كيف أمكنه البقاء بعد تجريده من كل ما يملك، بحجة أنه لا يملك دائماً ما يملكه، وحتى بعد تجريده من اسمه (وها هو بلا اسم في هذه الحكاية) وهو ما لا يطمئنه، فهناك ما لا يحصى من كائنات تتمتع بفرصة البقاء، بقوة وحنكة الحياة ذاتها، دون أن

يسبغ بقاؤها معنىً على حياتها .

(٢)

يكاد يبلغ الستين من عمره، بعضهم يراه أصغر سناً من ذلك، بعد أن أفلح في الاحتفاظ ببقايا نضارة في قوامه وملامح وجهه (وهو ما يفسره بامتناعه عن التدخين، وعدم اندفاعه على تناول اللحوم فهو شبه نباتي كما يصف نفسه)، وبعضهم الآخر وقد طبعت المحنة محياه وحفرت أخدودين طوليين حول فمه، يمنحونه عمراً أكبر . وفي جميع الأحوال فإن تقدير عمره، يتفاوت طبقاً لتقلبات أحواله وحجم خسارته، ومدى صموده في كل مرة، ووفقا لزاوية نظر الرائي . أما هو وبغير تردد فيمنح نفسه عمراً بآلاف السنين، وليس أقل من ذلك، بعد أن يجمع عمره الى أعمار أبيه وأجداده (الذين تعرضوا مثله للسلب من قبل) وأعمار بقية السلالة . ويقول للمعترضين مضمراً الحديث لمؤرخين، وهواة بحث في نشأة السلالات على السواء : إن هذه هي الحسبة الصحيحة لمن هو في حالته، وحتى لمن هو في غير حالته .

لقد عاد الى لغة الآلاف . وإذ يضيق سامعوه من الشهود المتوافدين بما يسمعونه من مبالغاته، فإنه يخرج عن الموضوع قائلا : أريد سيارة . ويبدو للوهلة الاولى وقد فاجأهم، أشبه بطفل متطلَب يبوح برغبة دفينة بسيارة كبيرة الحجم، من تلك الألعاب التي كانت تستهوي الاطفال، قبل أن تحل محلها الألعاب الالكترونية . ويعلَل خروجه عن الموضوع بقوله : سوف أشتري بالألف دينار الأخيرة ما أن يعيدوها لي، سيارة . إذ أن حاجتي لها تشتد يوماً بعد يوم، فلم تعد بي همَة على المشي، ولا رغبة في التطواف . وهل يكفي المبلغ "المتواضع" المال المسروق لشراء سيارة ؟ إذ يُسأل عن ذلك من فضولي أو من مخمَن أسعار أو من مخبر، وما أكثر هؤلاء بين الشهود، بداعي الاستفهام أو بغرض الاستفزاز أو بهدف الاختبار، فإنه يسارع للإجابة التي درَب نفسه عليها واستوثق منها : إنه يكفي ويزيد لسيارة جيدة مستعملة موديل ١٩٦٧ .

لم يسبق له وهو الريفي المتعلم ذو الأصول البدوية، الذي عاد بعد التقاعد من وظيفة معلم الابتدائي إلى نفسه كما قال، والذي يقيم بين مدينة وقرية، تبعاً لتبدل مكان اقامة الأبناء الذين شبَوا عن الطوق، ويسهل عليه ارتداء الزي العصري أو التقليدي على السواء، كما يسهل عليه بل يستهويه الخوض في شؤون السياسة والدين، كما تروقه المبادرة الى حل مشكلات غيره بالتحكيم الصائب . . لم يسبق له حقاً أن اقتنى سيارة، وهو لا يكابر في ذلك : لم يكن بين اشقائي ومعارفي،

بمن فيهم مدير المدرسة ، من اقتنى سيارة من قبل، غير أن بعضهم أخذ مؤخراً يتنعم بها ويبرع ويستعرض في قيادتها، وكأنه أمضى عمره خلف مقودها. وهو من جهته خطط للأمر تخطيطاً محكماً، بعد أن تفكر ملياً في ما سيفعله بماله المسلوب ما أن يستعيده، وبعد الوعود التي حظي بها من وسطاء الخير بإعادة حقه الذي سلب منه، ما جعله واثقاً من اقتناء هذه المركبة في القريب، بعدما أدرك واكتشف أن هذا وليس أي شيء آخر، هو ما ينقصه حقا، لتتويج رحلته الشاقة "في الحياة" التي أمضاها ماشيا على قدميه، وأحياناً حافياً بلا حذاء. "من حقي امتلاك سيارة. من حقي في نهاية المطاف، أن أكون مستقلا في سيارة خصوصية كالآخرين".

وسطاء الخير (هم في واقع الأمر من أطلقوا هذه التسمية على أنفسهم، وقد جاراهم شهود بينهم محامون ورجال دين ومحاربون قدماء ومدراء مصارف، وارتضوا لهم التسمية) شرعوا بعد أن فوجئوا بالطلب، وبعد أن أخذوا وقتهم الكافي في التفكير به وتقليبه على أوجهه الكثيرة، وتوافقوا على معقولية طلبه. . شرعوا وبناء على رغبته يبحثون عن سيارة مناسبة له. سيارة مقبولة وتؤدي الغرض كما قالوا. وسرعان ما أوضحوا له بعد أن دعوه للتفاهم والاتفاق، إنها لن تسجل باسمه في البداية، إذ ستكون مرهونة لهم، فعمولتهم مرتفعة وتكاد تضاهي ثمن السيارة، ولن يكونوا في عجلة من أمرهم لاستيفاء العمولة منه بأقساط ميسرة، فوضعه الصعب "يتحدث عن نفسه بنفسه". وعليه أن يتفهم هذه الاجراءات الروتينية لكن الضرورية والواجبة، ويرتضي بها. بعضهم قالوا إنها ربما تكون عربة نقل خصوصية: باص صغير (كوستر) أو بِكب على الديزل، ويمكنه بحكم وضعه المتعثر تحويلها الى مركبة عمومية، لنقل الأشخاص والبضائع (لا المهرَبات كما شدَدوا) فترضي طموحه لاقتناء مركبة، وتؤمَن له مورد رزق هو في أمسَ الحاجة اليه، وليست سيارة خصوصية بالضرورة. على أنهم كما قالوا وإذا حالفه الحظ، قد ينجحون قد يتوفَقون، بتوفير "ميني سيارة" له (ذكَرته الكلمة بالميني جوب فابتسم مع نفسه) وأنهم سوف يختارونها له (السيارة وليس من ترتدي ميني جوب)، بعد تحصيل ما يسَعَهم تحصيله من ثمنها، من اولئك الذين سلبوه كما قال كل ما يملك وآخر ما يملك، وعليه فإن الصورة لا بد أن تكون واضحة في ذهنه.

لم تتوضح الصورة في ذهنه بل زادت تشوشاً، ومع ذلك فقد وافق على مضض حتى أنه ابتلع ريقه، ودون أن يكون قد أصغى جيداً أو أعطى بالاً، لما ساقوه من شروحات واستدراكات، لاهجاً بالتصريح: أريد سيارة، لماذا يستكثرونها علي. يصرَح بذلك كمن يحلم لا من يعلم ،

وكمن يتنفس لا من يتكلم، مغيَباً الحاضرين من الوسطاء، ومستحضراً غائبين من شهود عدل. أما الأشباح المرئيون الذين سلبوه مدخراته، ودأبوا على استثمارها ورفضوا إعادتها له، فقد سارعوا وبعدما بات الحديث شائعاً وما أن تناهى الى مسامعهم أولاً . . سارعوا بعدما تسللوا الى المنابر، للتشكيك بنواياه وأهليته، قائلين إن الفكرة لا تستحق التفكير المضني بها، فهو لا يحسن القيادة أبداً، وهو ما يغفل عنه الوسطاء الذين أخذتهم الشفقة به فلم يحسنوا تقدير الموقف، بل إنه لا يحوز رخصة قيادة وهو ما كان جديراً بانتباههم، وليس بحاجة أصلا لهذه المركبة، بعد أن أمضى سحابة عمره وباعترافه بدونها. فما حاجته حقاً لسيارة لن تكون إلا شرقية، تستهلك المزيد من الوقود الذي يكاد ينضب، وتزيد الزحام زحاماً والتلوث تلوثاً، وتتسبب بالمزيد من حوادث السير. وإذا كان يثير هو وابناؤه ما لاحصر له من مشاكل وتعديات، وهو راجلٌ على ساقيه الكليلتين يطوَح بذراعيه الناحلين، وهم (أبناؤه) هائمون على وجوههم يتصايحون في الأزقة والطرقات، فكيف إذا تولى قيادة مركبة لا يعرف من أمرها شيئا، غير تعلَقه بها وتوقه الطفولي لامتلاكها.

يعلنون ذلك في حضرته وفي غيبته، فيستذكر اشتباه رحمة الوالد لهم بأنهم شحاذون خطرون، يتفضلون على ضحاياهم ويمنَنونهم، مستدركاً أنهم أشد خطورة من اولئك، ومتوجساً في دخيلته أن يكون الحال قد انقلب عليه، فبات شحاذاً لا حيلة له بل يثير التندر. وثمة بين أفراد العصابة من اجتهد، وقام بالتذكير بأن العمر قد لا يمتد به أكثر مما امتد به، فصحَته عليلة خائرة من فرط حساسيته، وسطوة وساوسه عليه، وتعلقه المرَضي بالماضي، وليس هذا بالوضع السليم الذي يجيز كما قال القائل، تسليمه مقود مركبة خاصة به، في الوقت الحاضر.

يسمع ذلك من عصابة الأشباح ويتمنى لو أن أحدهم ينازله ويعاركه، أو يضع عينيه "في عينيَ" كيما يجري اختبار حي لكل منهما. ويلاحظ أن الشبح المتكلم يشيح دائماً عنه ولا يخاطبه، ولا يعيره أذناً سامعة، وهي طريقة دأب عليها هؤلاء ليس للتقليل من شأنه بل لإنكار وجوده، وحتى محاولة اقناعه عبر آخرين بعدم وجوده، وبعدما اجتهدوا بأن الإلحاح على هذا الإنكار، يضمن لهم الاحتفاظ بالمسروقات ونسبتها إليهم، ما دام أن صاحبها لا وجود له وخلافاً لما يتخيل . .

وهناك من اقترح منهم، من اولئك الذين سلبوه كل ما ورثه، اقترح حلاً بديلاً ولو مؤقتاً، بضمان نقل شبه مجاني له، ولأبنائه الاثني عشر في حافلاتهم الحديثة المزودة بكل وسائل الراحة

(سرعان ما أصبحوا يمتلكون مثل هذه، وما هو أكثر منها، بعد أن استثمروا المسروقات استثماراً جيدا)، مقابل خدمات رمزية يؤدونها كتشييد أسوار لقلعتهم الممتدة، أو رعاية أبقار سليمة في المزارع والحظائر، أو جمع قمامة البيوت والشوارع، أوتنظيف المراحيض العامة، أو مواكبة كلاب بوليسية في نزهاتها اليومية، فتنتفي حاجته لمركبة خاصة به وبالعائلة.

ولم يكن ممكناً سماعه وهو يقول إنه تقاعد من عمل أفضل على تواضعه، ولا يفكر بخدمتهم ومكافأتهم، نظير استيلائهم على كل ما يملك، فقد دأبوا على إثارة الضجيج ما أن ينطق، ناعين عليه إضاعته للفرص، وأنه لا يصلح لأي عمل سوى التباهي بأجداده، وبما كانوا يملكون ولا يملكون. وهناك منهم، من هؤلاء، من سالبيه الذين أعياهم التفكير في حل مشكلته، من رأى تأمين دراجة هوائية له، لتنشيط ساقيه بما فيها الساق العرجاء، ولتفادي التلوث الذي تتسبب به عوادم المركبات، واقترحوا أن تكون الدراجة ذات موديل متطور، وبثلاث عجلات عريضة ومتينة لا باثنتين كبقية الدراجات، وأن تُقلَ أكثر من راكب، مع تزويدها بنصف موتور وإضافات أخرى: مقعد جلدي مريح بمسند للسائق، ومظلة واقية من الشمس والمطر والعواصف، وأضواء نيون باهرة، وزامور موسق صدَاح، وحتى براديو سوني متعدد الموجات، وعلم صغير يخفق في مُقدَمِها، كسيارات السفراء ومدراء الشركات الكبرى، وأن يتم منحه إجازة قيادة قانونية، ورخصة تسجيل نظامية للدراجة على الفور.

وقد تخيل الأستاذ العنيد في أثناء حديثهم شاحنة جبارة تداهمه وهو مشرئب على مقعد الدراجة، ثم رأى أنه سقط مع الدراجة في هاوية عميقة، بعد أن دفعه أحد منهم من الخلف نحو منحدر سحيق، وأن تلامذته الذين باتوا رجالاً يسخرون من مرآه يتمايل كالصبية على مقعد دراجة، فما أن سمع ما سمعه عن عرض الدراجة، حتى أشاح بوجهه مستاءاً متأففاً، ورفض عروضا شيطانية مشابهة كما وصفها.. رفضها قياماً وقعوداً، مباشرةً ومداورةً، بصوتٍ عالٍ وآخر متحشرج، ورأى فيها تحايلاً خبيثاً لحرمانه من تحقيق حلم حياته، باقتناء سيارة حقيقية تملأ العين ولأول مرة في العمر.

أما الوسطاء الذين يتدخلون متأخرين كل مرة في السجال المفتوح، فقد أقرَوا له بهذا الحق، وتمنوا عليه عدم الاستعجال (فقد صبر وانتظر طويلا، ومن الخير له أن لا يغيَر عاداته)، إذ يجب نيل موافقة أولي الأمر على ذلك، وهؤلاء هم من سلبوه كل شيء، وقد تبدلت صفتهم فأصبحوا

بتدبير مدبَر وقدرة قادر، شركاء من موقع المقرر وبكل اللغات في النقاش المتطاير: حول مزايا ومحاذير اقتنائه لسيارة خاصة به، والتوقيت المناسب لتزويده بها، إذا كان لا بد من القبول بهذا المحذور. وحول ظروف التدريب على قيادتها فيقومون هم بتدريبه لضمان الكفاءة، وحتى بعد أن يتحصل على رخصة قيادة إذا تحصَل عليها. وشروط استخدامها فلا يندفع بها هنا وهناك صعوداً وهبوطاً وفق أهوائه الجامحة، وحسب رغبات أفراد عائلته، ولا يعيرها لأحدٍ أياً كان، ولا ينقل عليها حمولة إضافية، ولا يستغلها صاحبها تحت قناع من البراءة لإيقاع الأذى بالغير، خاصة بعدما أصبحت السيارات من الأدوات المفضل استخدامها لدى جماعات الإجرام، وكذلك ولِمَ الموارية للجماعات الارهابية. وهذا هو السبب الذي بات الشركاء يصفونه بالسبب الحقيقي، لتحفظهم أي رفضهم اقتنائه مركبة، وهو ما أثار طرب واستحسان الوسطاء، الذين دعوه "منذ الآن"، للاحتراس الشديد وتغليب العقل تحت طائلة المسؤولية.

(٣)

"كل هذه السيارات بمختلف الموديلات والأحجام، في الأقبية وفي المعارض وفي شوارع العالم، ويستكثرون عليَ سيارة صغيرة قديمة".

كان الأستاذ الذي يواظب على غسل فمه وتنظيف أسنانه، وكثيراً ما ينسى أو ينشغل عن حلاقة ذقنه، فتنبت هذه وقد اختلط بياضها بمسحة سوداء، فيضطر متضايقاً إلى حكَها وكأنه غير مسؤول عن نموها. . كان يردد مع نفسه وفي مجالسه، وفي رواحه ومجيئه لكل من يصادفه في طريقه، وكذلك للوسطاء والشهود الكثر الذين يقصدون بسياراتهم الفاخرة، بيته الصغير نصف المكتمل، الذي يجاور بيتا كبيراً نصف مهدم.

وقد لفت بعض هؤلاء انتباهه، بنبرة تجمع بين النصح والتقريع كأب يهمس لابنه الذي يفرط في تخييب أمل أبيه به، إلى أن العديد من الشركات والمؤسسات باتت تخصص جائزة سيارة لزبائنها، وكان يجب أن يكون عارفاً بالأمر ومتابعاً له: ألم يخبرك أطفالك بذلك، سألوه بازدراء، وأبلغوه إن بعض هذه السيارات فارهة وثمينة، فلا تقتصرعلى الفرنسية واليابانية والكورية والاسبانية والتشيكية والماليزية وأخيراً الصينية، بل تشمل ماركات ألمانية وسويدية وايطالية وبريطانية معتبرة، وعابوا عليه وهو النبيه الحاضر الذهن، الذي لا تفوته شاردة ولا واردة، ويتابع أخبار الدنيا أولاً بأول، أنه يبدد هذه الفرصة ولا يسعى مثل غيره من الفائزين الكثر لاقتناصها. وصارحوه بأنه لا

يسَعُهم أخذ تطلعاته لاقتناء سيارة مأخذ الجد، ولا أن يمضوا في مجاراة رغباته، والتعاطف معه الى ما لا نهاية، ما دام لا يعبأ ولا يبادر لاستغلال هذه الفرصة الإستغلال الأمثل، بزيادة مشترياته وتنويع مصادرها وأوقات التزود بها، فيشبع حاجته وحاجة أسرته الممتدة، لهذه المشتريات التي لا حصر لها، ومن جهة ثانية يشق طريقه بثقة إلى الفوز، كحال الطموحين الذين يعيشون عصرهم برهافة وحذق، لا عصورأجدادهم التي ولَت إلى غير رجعة.

ولم يسمح هؤلاء وقد اكتست ملامحهم ونبراتهم بجدية صارمة، رغم الابتسامات اللطيفة التي يغدقونها عليه، والتربيت على كتفه.. لم يسمحوا له بطريقتهم المميزة هذه، بمناقشتهم أو سماع استفسار منه، إذ سبق أن عابوا عليه ما أسموه، ميله التثبيتي (وهو تعبير يسمعه لأول مرة وقد اختلط عليه معناه، وقد خشي أن يكشف تشككه ويستفسر منهم عنه) إلى هدر الوقت والجهد في مناقشات سفسطائية، والتأسي على وقائع غابرة صادفته، وكأن هناك من عصامي ناجح واحد في هذه الدنيا، لم يواجه صعوبات كأداء في حياته، بدل أن يجند قواه ومَلَكاته جميعها لجني واقتناص فائدة ملموسة.

لقد التبس عليه أمر الوسطاء هؤلاء بيضاً وسوداً وصُفراً نساء ورجالاً، إذ لم يعد يميز بين الهزل والجد في أحاديثهم، ولا حتى بين الصدق والكذب في ما يقولون، فهم يظلون يحتفظون بسيماء الوقار والجدية المفرطة، ويبدون قدراً ولو ضئيلاً ومتقلباً من الود والتعاطف معه، غير أنهم يجهرون أحياناً بكلام لا يصدق، وقد يكون الغرض إذا كان ظنه في محله هو السخرية منه. لم يبح لهم بشكوكه مخافة أن يفسد كل شيء، وأن يسيئوا فهمه رغم أنه لا يلاقي صعوبة في التعبير عما في نفسه مع أي اشخاص آخرين، سواهم هم. حتى خشي لو صارحهم بمكنوناته، أن يصبح بلا ظهير أو نصير، فيوالي الأشباح المعلومون الاستفراد به.

على أن الأمر ازداد سوءاً على مرَ الأيام والأسابيع والشهور، في وقت كانت فيه آماله تكبر، وتبدو له على وشك التحقق، إذ تعرَض فوجٌ من ابنائه بأعمار مختلفة من بنين وبنات وعلى التوالي للدهس، على أيدي سائقين محترفين ومقنَعين من الأشباح، الذين يصنفون أنفسهم شركاء، حيث قضى اثنان من الأبناء ظل أحدهما ينزف حتى الموت على قارعة الطريق، وخرج ثالث بكسور، ورابعة بعاهة في الكتف، وخامسة بإصابة شديدة في الكاحل، بينما زج بسادس في المعتقل ولم يخرج منه بينما اختفى سابع ولم يُعثر له على أثر. ولقد تلقى تعاطفاً من هنا

وهناك على ما أصابه، بعدما انتشرت انباء هذه الحوادث المتعمدة ، كما حظي بمعونات عاجلة ومتأخرة، مشفوعة بدعوته التزام الهدوء وضبط النفس، كي يبرهن على حكمته وشجاعته. على أن الأشباح الشركاء لم يهدأ لهم بال، لخشيتهم من انتقامه وكراهيته لهم، وقد اجتهدوا بتحميل الأب مسؤولية طيش ابنائه، وعدم تقيَد هؤلاء بقواعد السير على الأرصفة وعبور الشوارع، وتمَ تهديده بالاحتجاز أو الطرد، إذا لم يضبط هؤلاء الأبناء، فخرج ذات ظهيرة حمراء عن طوره هو وزوجته وأولاده المتبقون تحت وطأة الغيظ وهم يهتفون: حتى المشي. .حتى المشي ينكرون علينا إتقانه، لم يبق سوى أن يعلمونا المشي أو يحرمونا منه. ولم ينتظروا صدىً لهتافهم، إذ بدأوا برشق مركباتهم بالحجارة وبكل ما تقع عليه أيديهم، وسعوا لتعطيلها وأحيانا إحراقها، وهو ما أدى لخسائر تحملتها شركات تأمين، وحتى المصانع الأجنبية المنتجة للسيارات، ولا أحد يدري كيف جرى تحميل المصانع المنتجة قسطاً من المسؤولية، وبالتالي "وجوب" أداء تعويضات عن الأضرار. كما أدى ذلك الى تقييد حركته وتنقلاته، وحصرها في أزقة ضيقة لا تعبرها المركبات، وقلما تنفد إليها أشعة الشمس، وفي احياء داخلية متربة شبه مغلقة. لقد وقع الحظر عليه وعلى ابنائه، وعلى امرأته أم ابنائه التي محضته ثقتها على الدوام ، والتي أثقل عليها ما وقع لأبنائها، قبل أن يضنيها الحظر والتقييد، الذي امتد ليشمل ابناء الحي وأحياء مجاورة.

والأم الثكلى أم أبنائه، التي ظلت تخلد الى الصمت، تناجي فيه ملائكتها وشياطينها وموتاها، هي أرملة أيضاً بسحنة جبلية، وبملاحة البحر المتوسط، تعقد (تربط) إيشارب (منديل) على رأسها، وتدخن سيجارة في المناسبات، ويروق لها الغناء بصوت لا تنقصه البحة في ساعات الحزن، وقلما تضبط وضع الملح على الطعام، وتؤدي ما تيسر لها من الصلوات، وتبكر وتتأخر في استيقاظها على إيقاع أحلام كل ليلة، وقد اقترنت ب "الأستاذ" أب ابنائها وهي تصغره بعشر سنين على الأقل، ما أن مات عنها زوجها الأول عريساً شاباً في مقتبل العشرين، في عمر ابنها القابع وراء القضبان.

لقد اعتصمت الأم الثكلى بصمتٍ حديدي، فيما هي ترقب الأحوال التعسة المنكودة للأب الذي أصابه "جنون" اقتناء سيارة، وتجهد في تنظيم أحزانها وتوزيعها على ساعات ليلها ونهارها، وعلى مواضع جسمها وروحها، كي لا يتمكَن منها الكمد. لم تقل له إن حالهم كانت أحسن، قبل أن يستحوذ عليه هذا الهاجس. ولم تخطَئه في ثباته امام من يسخرون منه، ويجزلون له

الوعود الفارغة. ولم تتهمه بالتسبب بما لحق بالعائلة من كوارث. ولا رمته بالقصور أو التقصير. لم تكن هذه الافكارفي البدء لتخطر ببالها، فقد كانت خواطرها تسبح في بحرٍ آخر. حتى حين كان يخرجها من صمتها بسؤالها إن كان على خطأ، أو إن كانت تساورها شكوك في سلامة نواياه، فقد ظلت تجيب بعد برهة تفكير بأنه: على حق، وكانت تنطق الكلمتين بصوت خفيض وبقدر من التردد، وهو ما كان يبلبله ويشعره بأن الحصار أطبق عليه من جميع الاتجاهات، ولن يفلح في اختراقه، حتى لو قاد سيارة مصفحة سوداء ذات دفع رباعي. وليس هذا ما ينقصه، ليس هذا أبداً، فما ينقصه معلوم للقاصي والداني للعدو والحبيب، ولأم ابنائه أولاً وقبل أي أحدٍ آخر، وهو اقتناء سيارة قوية وجذابة أيضاً. .لِمَ لا، تجمع أشتات العائلة داخلها (كتلك السيارات، التي يُقال عنها في الدعايات: قلبها كبير) ولو لم تتسع لابنائه جميعهم في المرة الواحدة، ويكفيه أنها تيسر له مجاورة مركباتهم وتجاوزها، وتسهل له التنقل والتزاور، وحضور مناسبات الأفراح والأتراح في المطارح البعيدة، وخلب الألباب وخطف الإعجاب، واستقبال الضيوف والأقارب والأصهار، العائدين عند نقاط الحدود.

أما أم الأبناء وهي سادرة في صمتها، فكانت تفكر قبل النوم وما أن تستيقظ، في عمرها الذي يتقدم ويتبدد، وعما يكون عليه حُسن الختام الذي كانت تتحدث به أمها الراحلة، وعما إذا كان صائبا أن تصبغ شعرها الذي ازداد بياضه، وهو ما فعلته في مرات متباعدة، أم تترك الشيب يهجم أينما يشاء فلا أحد يخجل من عمره، مع أن هناك من يخجل منه ولا يستحي من أمور أدعى للحياء، بل كانت تنشغل أيضاً بنبتة حصى البان التي لم تنمُ في تنكة الزرَيعة منذ السنة الماضية، وكان قيل لها إنها سريعة النمو، وبالجوريَة التي حسبتها حمراء فإذا بها تطلع بيضاء (ليست بيضاء بيضاء، بل كما قالت البنت الصغيرة: أف وايت)، وفي القطط التي يزداد عددها أمام باب البيت، ولا تعرف كيف تدبَر حالها مع طلبها للطعام طيلة النهار، ومع نواحها المفجوع في الليل، وفي برج الحمام الذي أقامته وأسقطته غير مرة كلاب ضالة، فطار الحمام ولم يحُطَ بعدئذٍ في حوش (فناء) البيت، ولماذا أصبحت بعدما كبرت مولعة باحتساء قهوة سوداء، تجعل طعم الفم مُرَاً على الدوام، وتتعلق بمشاهدة أفلام قديمة على التلفزيون يتسنى لها مشاهدة اجزاء منها فقط، ف "الاستاذ" يحجز التلفزيون متنقلاً من نشرة أخبار الى اخرى، في محطات البلاد البعيدة، كي يعرف ما يدور حول بيته.

تخطر ببالها هذه السوانح وغيرها، مثل ما إذا كان هناك خطر من وقوع زلزال كما يقال، وهل يستحق أن تخاف منه في ظروف الهناء التي يعيشونها، وهل "يصح" أن يتعرضوا له فالعدل أن يتم اعفاءهم منه، وهم على ما هم فيه، وهل يجوز للمرء أن يظل يتلقى معونات الى ما لا نهاية ويطلب مزيداً منها، ومن هو أجمل وأكمل على الرأس الحجاب أم الإيشارب، وهل تصيب هشاشة العظام كل الناس أم ناس وناس.

تعبر ذهنها هذه الخواطر بإرادة منها فهي تستدعيها اليها، حتى تتمكن من الضحك في وجه البنتين والتسرية عنهما، بعدما كبرتا وباتتا تحملقان في مستقبلهما الغامض، وحتى لا يداهمها البكاء على الذي مات دهساً بلا ذنب، وذاك المحتجز بغير ما سبب، وذلك الذي اختفى ولا بد أن أبناء حرام قد أخفوه، وحتى تشجع ابنها الشاب الآخر الذي بات يصنف مع ذوي الاحتياجات الخاصة، وتشاركه سماع أغاني هذه الأيام التي قلما تميز بينها أو بين "قائليها"، وكي تجاري الأستاذ ما وسعها ذلك في حماسته لاقتناء سيارة، وكأن من ينتوي شيئا يجب أن يذيعه وينشره على الملأ، ويطنطن به على رؤوس الأشهاد، بمناسبة وبغير مناسبة.

أما هو فيستخف بعقلها إذ تعجز عن إدراك مراده، بينما لم يعد هناك من أحدٍ يعرفه أو لا يعرفه، يُماري في صواب هدفه ومشروعية مقصده، حتى أنه حدثها كيف أن العالم تغير ولم يعد كما كان، وعن العولمة التي تضمن إنتاجاً غزيراً وحقوقا متساوية وامتيازات عادلة، وأنه إذا لم يهتبل الفرصة هذه المرة، فقد تضيع منه ولا يحوز على سيارة أبداً، كما يخطط اولئك الذين سلبوه كل ما يملك، وغير الراضين مع ذلك.. رضي القتيل ولم يرض القاتل. وقد رفع صوته وفخَمه وهو ينطق بالعبارة الأخيرة، ولما قالت له: لن ترضى روح ابنها الذي مات دهسا في طريقه الى المدرسة، فقد أجابها أنه يتحدث "بشكل عام" ولا يقصد ابنهما الحبيب (واستذكرت أنها كثيراً ما تسمع هذه الأيام، من كبار وحتى من صغار عبارة: بشكل عام، وكلما سمعتها تشعر بالحاجة الى التثاؤب). ثم إنه جنح للقول بأن ابنهما لو كان إلى جانبه في السيارة، ولو لم يكن ماشيا، لما تعرض ربما للحادث الشنيع. ولم يعرف على التو وقد سقطت من فمه العبارة الغريبة، إذا كان من الواجب أن يبدو جاداً أم مازحاً وهل يحتمل هذا المقام هذا المزاح، غير أنه أفلح بعد أن ترحَم على ابنهما، في الاستدراك بأنه يبالغ في ما قاله، فالسائقون وركاب السيارات والحافلات يتعرضون أيضا لحوادث خطرة. لكنها حوادث غير متعمدة وليست كالحادث الذي

أودى بالولد، أجابته وقد ضاقت ذرعا بهذه الثرثرة، فوافقها من فوره دون أن يخفف جوابه من ضيقها، أو يهدىء من لهاثها الذي حاولت عبثا أن تكتمه، متخوفة في الوقت ذاته من أن تكون مصابة بالربو دون أن تدري، ومتسائلة في سرَها عما هو أخطر: الربو أم هشاشة العظام، متجنَبة ان تطرح عليه السؤال، فلو فعلت لسارع بالإجابة دون أن يكون متأكداً، أو حتى عارفاً الجواب الصحيح. آملة أن تجد الجواب في أحد برامج التلفزيون الطبية، التي تواظب على متابعتها في ساعات الصباح، بينما هو ينشغل في استقبال من تعرف ومن لا تعرف، من ضيوفه الكثر وبينهم نساء جميلات وقبيحات، وإحداهن قبَلته على وجنتيه ذات مرة لحظة استقباله لها على الباب، ولم تقم الضيفة المصون بتقبيل ربة البيت.

لقد ضاقت ذرعاً بثرثرته عن سيارته الموعودة، وهي التي لا تعدَ نفسها أفهم منه، غير أن هناك في هذه الدنيا ما لا يحتاج الى فهم أو شرح، لكي تميَزه عن غيره، كحلول الليل أو فورة الحليب أو خمبر العجين أو ظهور الحصبة على الأولاد، أو رائحة النعنع والريحان، أو فساد طعام قبل يومين، او بروز ثآليل في إصبع اليد أو القدم، أو اختفاء البرتقال في الصيف، أو انتفاخ خشب الباب في الشتاء، أو حاجة الأبناء والبنات لجهاز موبايل مثل غيرهم، أو تلك المساخر البادية على ألسن وفي عيون الأقربين والأبعدين، حول سيارة الأستاذ التي أفرد مكاناً لها في الحوش ككراج (مرآب) خاص بها، وبات ينقز من أخبار زيادة سعر البنزين، ولا ينقصه سوى أن يدعوني لغسلها له.

على أنها ظلت تخشى مفاتحته بضيقها منه، كي لا يظن بها الظنون، وحتى لا تهدم ما بناه (في رأسه) منذ أمدٍ طويل، وحتى لا تتسبب بحرمانه مما راودته نفسه عليه، وهي التي لا تمنح ولا تمنع، لا تقدَم ولا تؤخَر، ومع ذلك يسهل على الأزواج بمن فيهم زوجها الفهيم تحميل نسائهم، تبعة الفشل في الكبيرة والصغيرة. الى أن كانت ليلة صارحها فيها بعد العشاء، أن الجماعة يماطلون وأن صبره بدأ ينفد. يماطلون في ماذا سألته متغابية، فأجابها متجاهلاً مَكرها بأنهم يماطلون في تسليم السيارة المتفق عليها، وأنهم ينتظرون أن يوافيه أجله، كي يفضَوا السيرة كلها وكأنها لم تكن. فشهقت وهي تدعو له بطول العمر متمنية الموت لأعدائه، وسألته: ألم تكن تعرف ذلك من قبل، فأومأ برأسه بالايجاب، مضيفاً أنه أراد أن يأخذهم بالسياسة.

لم تجد ما تقوله وقد تأججت انفعالاتها المكتومة، فحملت نفسها ونهضت، وسارع يدعوها

وهي واقفة الى الجلوس، فشكت له بأنها لا تتحمَل الجلوس طويلاً من وجع في ظهرها، فدعاها مجددا للبقاء مستنكراً أن يكون الوجع، قد حلَ عليها فجأة الآن، منوَهاً الى أنه هو نفسه يعاني من وجع في ظهره، لكنه لا يشكو ولا يتدلل مثلها. فتنهدت وهي تعاود الجلوس ببطء على الكرسي البلاستيكي البني وتمسح باطن كفها على رأسها، وسألته أن لا يزعل إذا باحت له بما في نفسها، ولما دعاها للكلام ترددت.. ليس بداعي التهيب فقط، وإنما لأنها لم تعثر على استهلال مناسب. وللحظات بدا لها أنها نسيت ما كانت تعتزم الافضاء به ، وبدل أن تباشر حديثها فقد أرسلت نظراتها إليه، وقد هالها أنها لم تتملَ وجهه منذ أمد بعيد، ولم تلحظ منذ زمن بريق الحياة الذي لم ينطفىء، ولا ذلك الترقب الملهوف في عينيه اللامعتين، وأنه ما زال يحسن تسريح شعره، بطريقة تصرف النظر عن الشيب الذي يتموج خصوصاً على الجانبين، وليس كحالها حيث العثور على بضع شعرات سوداء غنيمة، رغم أنها أصغر منه (وراثة ومجرد لون أبيض، قالت لنفسها، واستذكرت أمها التي ابيضَ شعر رأسها قبل الأربعين كما قالت لها). ثم حمدت الله وهي تتملى قسمات زوجها، أنه لا يترك فراغاً بين أسنانه، إلا ويملأه رغم ارتفاع الكلفة بسن صناعية، لا يميزها شيء عن الطبيعية، خلافاً لبعض الناس الذين يتركون حُفراً في أفواههم بين أسنانهم، ويكثرون من الضحك مع ذلك، فيصبح النظر اليهم عقوبة للناظر خاصة للأطفال. أما هو فقد شعر في تلك الهنيهات، أنها تباعدت عنه حتى بات لديها ما تخفيه عنه، بعد أن ابتعد عنها لفترة طويلة، منذ أن انشغل بما انشغل به، وكان ظنَ أن التقاعد من الكفاح المدرسي سوف يقرَبه منها، ومن الأولاد الذين يحتاجون رعاية خاصة، ولكن ما العمل وقد استنزفني الشياطين الوحوش، وحرموني النعمة واللقمة الهنية وجني ثمرة العمر.

وبعدما طال تهيؤها للكلام دون أن تتكلم، نهضت. فسألها الى أين ثانيةً.. أنت لا تبكرين في النوم، فأجابته أنها ستصنع شاياً له، فطلب أن يكون الشاي بالقرفة فوافقته، قائلة إنها لن تشرب قهوة في الليل. ولما عادت بعد حين وجدته ينتظرها والقلق بادٍ عليه. سألته: هل تأخرت عليك، فنفى أنها تأخرت وسأل إذا كانت وضعت قرفة، فسألته: ألم تشم رائحتها. لم يجب بشيء، إذ لم يكن قد شم الرائحة، وانتظر معها أن يتخمر الشاي في الإبريق الكحلي بلون الحبر الغامق، والأبيض من الداخل، وفي الأثناء استأنف بالثقة ذاتها كلامه الأول الذي انقطع قائلا: إنهم جميعهم، من يريدون لنا الخير، ومن يتربصون بنا شراً فوق شرورهم الأولى، لا ينكرون

علي حقي. وهذا هو المهم.

هكذا اذن.. هذا هو المهم ؟. نطقت بالكلمات القليلة المتسائلة بالتشديد عليها، واكتفت بها لترميه بعدئذٍ بنظرات قوية متفحصة ومتشككة، وكأنما لتستكشف ما إذا كان في عقله، أم أن عارضاً أصابه، وقد أفزعته نظراتها حتى خشي عليها من جهته، أن تكون موازينها قد اختلَت، فانفجر يسألها: ما بكِ، ولدهشته فإنها لم ترتجَ بل ارتخت ملامحها، التي كانت منقبضة قبل قليل، واستعادت وداعتها، ثم إنها وضعت يدها على ظاهر يده، ولم يفهم السر في تقرَبها المفاجيء، وإن كان استعاد ملاحظة قديمة، بأن يدها صغيرة كأيدي الأطفال أطفاله وتلامذته، وأن هذه اليد الحانية لم تعد بامتلائها السابق. غير أنها سحبت يدها كأنما اكتفت بذلك أو لأنها تحتاج ليدها، وعادت تحدَق به ثم تنهدت وأخفضت عينيها الى صدرها، وتمتمت قائلة وهي تسكب الشاي له ولها: لا تزعل. فأجابها أنه لا يزعل منها، وسألها بلطف بالغ: متى زعلت منك؟

لم تجبه فقد سبق له أن زعل منها، أليس رجلاً..؟ غير أن هذا ليس وقته. ثم اعتدلت في جلستها وقالت: إسمع أنا أفخر بك أنت تعرف. أنت من ترفع راية العائلة وترفع رأسي. إنهم يبيعونك سمكاً في الماء، لماذا تقبل ؟ وضحكت وهي تذكَره أنه لم يحضر لهم سمكاً من زمان ، وقالت أموت من الجوع ولا آكل السردين الذي تأنف منه القطط الجائعة، وحتى لو سمعت ألف مديح كذاب بهذه الأسماك اللامعة، المدهونة ربما بزئبق، والتي تزنَخ رائحتها بلداً بحالها. إنهم يطعمونك جوزاً فارغاً. وهنا ضحك واستذكر أنه لم يضحك معها منذ متى. الله أعلم. وسألها: جوز فارغ أم سمك في البحر، وخلافاً لتوقعه لم تضحك، بل تجهمت قبل أن تقول بغضب، جهِدت أن لا يزيد عن الحد:

أنت تفعل ما لا يفعله أحد، أنت على خطأ.

ولما حاول أن يستفهمها أسكتته وكمن يدرأ لعنة داهمة، بحركة عصبية من ذراعها صوبه: أي سيارة يا ابن الحلال، أي مجننة، أي سخمطة، أيَ ضراب البين، أية تخاريف، أية سواليف لا تودَي ولا تجيب، تماماً مثل سيارتك التي في بالك. صرنا مضغة في كل فم، وعلى لسان من يسوى ولا يسوى. غداً يحضرون حمارة جرباء ويقولون هذا حصان لك، اركبه، خيَل، وهذه هي سيارتك. مبروك. سوق. ساوموك ثم وعدوك ألف مرة، وعيش يا قديش. لا تزعل.

ولما سألها بهدوء فوجيء به يحلَ عليه وبغير زعل، ولعله توقَع وترقَب بصورة ما بحدسٍ ما

ثورتها: هل أتخلى عن حقي لمجرد أنهم لا يصدقون في وعودهم، فقد أعجبها السؤال وكانما كانت تنتظره، وشكرته في سرَها لأنه طرحه، وردَت من فورها بصوتٍ تخالطه بُحة لكنه عالٍ: أهكذا يتمسك عاقل بحقه، يطلب سيارة لأنه يفكر بشرائها حين يستخلص حقه ؟. ما شأنهم بنواياك ومشاريعك. أية شطارة. أية فتاكة. أية عبقرية. أي عمى قلب. أطلب حقك فقط يا ابن الناس. هل تستكثره على نفسك. هل نسيته. أخاف ان تكون نسيته من كثرة ما طالبت بسيارة فقط، وإذا كنت تتذكره فقد نجحت في جعل الناس والأمم تنساه. ما شاء الله. كأنك تطلب هدية أو تلتمس مكرمةً، بدل أن تطلب حقك المنهوب. ما الذي جرى لعقل الأستاذ، هل خرَبه تلامذتك الصغار. لا، ليس على التلاميذ ذنب. خذ حقك أولاً، خذهُ، ثم اشترِ سيارة أو طيارة أنت حر.

ولما تنهد مدافعاً بالقول: هذا ما أفعله، فقد صرخت بوجهه حتى كاد كوب الشاي الثاني يندلق من يدها: لا تقل ذلك لي، قله لغيري. قله لضيوفك. لا ليس هذا ما تفعله. أنت تفعل شيئاً آخر. أنت تفعل ما لم يفعله أحد من قبلك. ما لا يفعله عاقل أو نصف مجنون. ما تفعله في عيون الآدميين، في عيون الأغراب والأحباب، أنك تبدو طامعاً في سيارة والسلام. هل هذا ما ينقصك وينقصنا. صار حالك مثل حال فلسطينيين هل تعرفهم – أومأ برأسه بالإيجاب متبسَماً حتى كاد يضحك رغم توبيخها العنيف له – إنهم يطنطنون ليل نهار في التلفزيون والاذاعات يريدون دولة كباقي الدول والمِلل. دولة، دولة، نريد دولة، أعطونا دولة. ويجيبون عليهم: تستأهلونها، إبشروا هذه السنة، ثم في السنة التي بعدها إن شاء المولى، ثم دعوها إلى السنة اللاحقة لِمَ العجلة، العجلة من الشيطان، وربما تكون دولة صغيرة بعض الشيء. العبرة ليست في الحجم والمساحة، بعض الدول الصغيرة أنجح من أخرى كبيرة. لا. نريد دولة أكبر، طيب دولة نص نص وهكذا، ولا يطلبون أبداً أرضهم المسروقة، لا يطلبونها. حتى لم يعد أحد يتنَبه أو يتذكر أو يعرف أن لهم أرضاً، وأن لصوصاً استولوا عليها بقوة السلاح. وهذا هو أنت مع سيارتك المهيوبة، حالها حال دولتهم الموعودة. هذا هو أنت. أتكون فلسطينياً ولا أعرف ذلك ؟.

وقد استرسلت في حديثها الذي بدا ريحاً ساخنة، ريح خماسين تهبَ عليه، الى أن بدأ هبوب الريح يهدأ رويداً رويداً، إذ أخذ التأثر وكذلك النعاس يغلبانها على غير عادتها، وحسناً أن النعاس أدركها وهي في جلستها، إذ كانت على وشك أن تنتحب، وكم يسوؤها أن تبكي

أمامه فهو يستقوي بها، كما تستند هي إليه، والنكد وخراب القلب لا ينقصانه. وخاف لحظتئذٍ أن تكون غيبوبة قد غشيتها، غير أن اضطراب صدرها تحت ثوب النوم الوردي المزهر طمأنه. وقد تضاعف في الأثناء سكون الليل، مع خلود الابناء والأم للنوم (لو كانت الأم، أمه، مستيقظة لانتصرت له، غير أنه في تلك الليلة لم يكن يبحث أبداً، عن انتصار على امرأته) بينما احتفظ بيقظته، وبابتسامة ودودة صافية أثارتها وأخرجتها من مكمنها حفلة التقريع، كما يُخرج الرعد والصواعق أزهاراً غريبة بهيجة. ابتسامة رضية هانئة ومفعمة بالذكريات، ظلت تطفح على محياه المكدود، أضاف إليها رفع حاجبيه مندهشاً، وتحريك يديه أمامه كيفما اتفق، كمن يتعثر في الحديث إلى نفسه.

. . . . . على أنه توقف عن ذلك فجأة، بعدما أخذ نَفَساً عميقاً وتنهد. توقف. لقد خجل لماذا يجب التكتم على ذلك، خجل من نفسه إذ شعر بامرأته تضبطه متلبساً. . متلبساً بماذا لا سمح الله ؟ بخطأ من اخطاء العمر، "عشتُ فأخطأت". ربما بخطأ العمر، بخطأ الشاطر فلا يخطىء ولا يقع إلا الشاطر، والأمثال جزى الله خيراً من يحبكونها وينشرونها، تهبَ لنجدة الشاطر. استرد ذراعيه الهائمتين في سديمه الأول، وفارقته ببطء دهشة الحالم الصاحي وبراءة السكران اليقظ. فماذا ينفعه أن يبقى سادراً بما هو فيه. بدأ يتحرر وإن بقدر من العناء، من حال الذهول الذي ظل يلازمه، ولاحظ على نفسه أنه خرج من شروده كمن يخرج من سرداب أو متاهة، وكما لو أن إلهاماً دافئاً حلَ عليه، وأيقظ ما هو نائم وكامن فيه. ليس إلهاماً بالضبط، بل لعله هاتفٌ ناداه واستجاب له. حتى أنه ولماذا الذهاب بعيداً ليس هاتفاً من موضع مجهول، إذ كان يشهد ويعاين الأثرالقوي الذي تركته ثورة امرأته عليه، قبل أن تغفو تحت وطأة انفعالاتها. لم يتذكر متى أشرقت نفسه بمثل هذه الحالة من قبل، ولم يعبأ بذاكرته التي لم تسعفه هذه المرة. هزَ رأسه مستجيباً ونهض واقفاً. مسَد شعره على الجانبين، وسوَى إلى أسفل قميص بيجامته الزرقاء، الحائلة اللون المخططة بالرمادي الصينية المنشأ، متهيئاً لِ"موعدٍ" هام. هكذا بدا الأمر له، رغم أنه ليس عازماً على المغادرة، فقد انتصف الليل واشتدت حلكته. مسح فمه براحة كفه، وتلفَت ذات اليمين وذات الشمال، ثم صوَب نظره الى باب البيت، وقال بنبرة هادئة ثابتة، انتزعها من موضع قصي في نفسه. نبرة غير خطابية ولا معهودة منه، رغم شكَه بأنها قد تسمعه وعلى أمل أن يتسلل صوته الى منطقة أحلامها: بل تعرفين من أكون، ومن يسمع حكايتنا يعرف الجواب

على سؤالكِ. يعرف من أكون، ويعرف أنه كان لا بد لكي تنهض الحكاية.. كان لا بد من كيس دنانير مسروق، ومن سيارة مزعومة تسوق وتحمل الحكاية، وقد آن لي أن أترجل من هذه السيارة اللعينة. للضرورة أحكام كي تنهض الحكاية، وقد انتهت من جانبي والبقية عندكم.